

الفصل الثامن

الارادة^(١)

قد تجلس إلى مكتبك في المنزل تقرأ وتكتب ، ثم تلوح في ذهنك فكرة أن الطمس لطيف ، وأنه من المستحب أن تخرج للرياضة قليلاً . وبدون روية أو تدبر تستمع إلى هذا الميل فتترك منزلك وتخرج .

وفي حالة أخرى تضيق بالعمل وتميل إلى الخروج للاستراحة ، ولكنك تحدث نفسك أن إنجاز العمل أفضل ، والبقاء أفضل من الخروج ، وبعد شيء من الروية تلقى بالمكتب وتخرج من المنزل .

وفي حالة ثالثة تتردد طويلاً بين الاستمرار على الكتابة والالتقياد لدافع الخروج ، فتجد بعد كثير من التفكير أن الأفضل إنجاز العمل فتبقى في المنزل .

هذه عدة أمثلة تبين سلوك الإنسان في وجهات ثلاث ، ويوصف هذا السلوك بأنه إرادى . والإرادة ميل إلى العمل ، وبذلك تدخل في باب النزوع . ومن الخطأ الشائع بين الذين كتبوا في علم النفس من قديم ، أن يقصروا القسم الثالث من الظاهرة النفسية وهو النزوع على الإرادة ، فيقولون إن الظواهر النفسية ، هي إدراك ووجدان ونزوع أو إرادة .

وليس الأمر كذلك ، لأننا رأينا أن هناك نوعاً من السلوك ينزع إليه الإنسان بالقطرة ، وهذه هي الغرائز . فنزوع الطفل إلى مص أصبعه هو نزوع غريزي غير

إرادى ، وهناك طائفة أخرى من الأعمال ينزع الإنسان إلى أدائها عن طريق العادة ، وهو يسلك فى هذه الحالة كالآلة التى تعمل دون شعور . فالمدخن الذى يضع يديه فى جيبه دون تفكير ويخرج لفافة التبغ ويشعلها يؤدى هذا العمل آلياً ، دون دخل للإرادة فى ذلك .

فامتصاص الطفل لأصبعه نزوع غريزى ، وإشعال لفافة التبغ نزوع عادى ، وخروج الكاتب من منزله الذى وصفناه فى بدء هذا الفصل ، نزوع إرادى .

فماذا تمتاز الإرادة ؟

تمتاز بالشعور بالغرض الذى يريده الإنسان ، وبإدراك العمل قبل أدائه ، ووجود نية التنفيذ ؛ بينما الغريزة عمياء والعادة آلية .

خطوات الإرادة :

يسير العمل الإرادى الكامل فى أربع خطوات .

١ — الشعور بغرض .

ذلك أن الأعمال الإرادية لا يساق الإنسان إلى عملها سوقاً ، بل يكون الغرض من العمل حاضراً أمام ذهنه ، ويصحب وجود الغرض الشعور به ، كالجائع يريد أن يأكل ، والظمآن أن يشرب ، والمتعب أن يجلس ، والمتبرم أن يخرج للرياضة . فكثير من أعمالنا نشعر بالغرض من عملها ، ونفكر فى أدائها من أجل ذلك .

٢ — الروية^(١) .

لتحقيق الفكرة التى تطرأ على الذهن ، قد يجد الإنسان عدة مسالك لتنفيذها ،

بعضها يؤدي إلى الغرض ، وبعضها لا يؤدي ، وبعضها أفضل من البعض الآخر . فإذا حصل طالب على إجازة الدراسة الثانوية ، وأراد أن يلتحق بإحدى كليات الجامعة ، فإنه يتروى أى الكليات أفضل ؟ وقد يجد أن تمة الدراسة العالية لا فائدة منها ، فيلتحق بوظيفة أو يفتح محلاً تجارياً . فهذه مسالك مختلفة ، ينم الطالب فيها الفكر ، ويتروى قبل أن يعزم على السير في أحدها . الروية عبارة عن تمحيص الآراء المختلفة ، والفحص عن البواعث التي تتجاذب صاحبها كالميل والرغبات والعواطف التي تبرز بالشخص وتجذب به إلى السير في طريق معين . وحينئذ يبصر صاحب الروية هذه المنازع والأهواء المختلفة ، ويشعر بها ، ويضع لكل منها قيمة وقدرًا . فروية الطالب حين يبحث عن دراسة عالية ، لا تكون فكراً خالصاً مجرداً عن نفسه ، ولكنه يضع في الميزان الرغبات المختلفة التي تتنازع ، فإذا كان يميل إلى الخطابة دخل كلية الحقوق ، وإذا كان يرغب في السيطرة توجه إلى المدرسة الحربية .

وقد لا يمر العمل الإرادى بدور التروى ، وحينئذ يندفع الشخص إلى أداء العمل . وغالباً ما يكون الاندفاع في الأمور البسيطة التي تعترض الإنسان ، أما جلائل الشئون فلا يبت صاحبها فيها إلا بعد روية وإمعان .

٣ — العزم^(١) .

هذه المرحلة هي التي يمتاز بها العمل الإرادى ويبدأ حقاً . والعزم هو الاستقرار عند رأى من الآراء التي تحقق الغرض الذي نريده ، ويلحق العزم التصميم ، أى الإلحاح في العزم وعدم الرجوع عنه . فالطالب بعد أن يستعرض أنواع

الدراسات المختلفة ، تقف رويته عند إحدى المدارس العالية ، ككلية الحقوق مثلاً ، ثم يصمم على هذا العمل .

٤ — التنفيذ^(١)

يجب أن يصحب العزم تنفيذ ما يصمم عليه صاحب الإرادة حتى يستتم العمل . والتنفيذ ضروري لأنه المحك الذي يبين إذا كانت الإرادة صادقة أم لا . وعلى الأقل ينبغي أن توجد محاولة التنفيذ . وقد تقوم عقبات خارجية في سبيل التحقيق النهائي للعمل ، وهذه الظروف الخارجية لا تهمنا نفسانياً . فالطالب الذي يصمم على الالتحاق بكلية الحقوق ، قد لا يجد معه المال الكافي لدفع مصاريف الدراسة فينتقعد .

هذا التحليل للأعمال الإرادية الذي يفصلها إلى عدة مراحل تجتازها ، هو الفكرة القديمة التي وصل إليها علماء النفس حتى عهد قريب . ولكن علماء النفس الحديثين يرون في العمل الإرادي غير هذا الرأي .

فالإرادة تعارض عدة رغبات ، فيعلو الإنسان بإحداها على الباقية ، ولهذا تصحب الإرادة دائماً بالجهد .

ذلك أنه من الخطأ القول بأن العمل لا يبدأ إلا بعد امتحان البواعث والدوافع^(٢) في مثل ذلك الهدوء الذي ذكرنا ، بحيث يستعرضها الإنسان أمامه ويرجع إحداها على الأخرى . بل الواقع أن أى باعث إلى العمل مثل الخروج إلى الرياضة ، أو التراجع مثل البقاء في المنزل ، حين يلوح في ذهن يندمج في الحال مع بواعث أخرى ، ويتسق معها فيتقوى ، أو يدخل في صراع مع البواعث

Exécution (١)

motif, mobile. (٢)

النفسية الموجودة ويضعف . مَثَلُ هذه البواعث الجديدة مَثَلُ الماء الذى نلقيه فى النهر ، فيحمله الجرى ويختلط بماء النهر ، ويتأثر به ويؤثر فيه ؛ فأى فكرة جديدة تلوح فى الذهن تندمج فى الحال مع الحياة النفسية للشخص وتصبح عملاً أو مبدأً لعمل .

أما تقسيم البواعث العقلية إلى أقسام ، بعضها يساعد الإرادة ، وبعضها لا يتفق معها ، فهو تقسيم صناعى ، لأن الحياة النفسية كلُّها لا يتجزأ . وعلى ذلك فإن فصل العزم عن الروية تعسف يجعل الإرادة قوة مستقلة عن العواطف والفكر ، وليس الأمر كذلك كما ذكرنا عند تحليل الظاهرة النفسية .

والحقيقة أننا إذا أنعمنا النظر فى المراحل السابقة ، نجد أن المرحلة الأخيرة وهى التنفيذ لا شأن لها بعلم النفس ، لأن التنفيذ يتوقف إلى حد كبير على الظروف الخارجية . أما الشعور بغرض أو باعث ، والروية ، فإنهما مظهران للإدراك والعاطفة . ولا يبقى للإرادة إذن إلا مرحلة العزم التى تصبح امتداداً للتفكير أو العاطفة .

وقد خرج العلماء من هذا التحليل والنقد إلى نظريتين : الأولى تنادى بأن الإرادة ليست فى النهاية إلا مزيجاً من الأحكام العقلية ؛ فالعمل الإرادى هو نتيجة انتخاب حكم من بين حكمين أو عدة أحكام ، لأنه أفضل وأكثر فائدة . بينما النظرية الثانية تقول بأن الإنسان عبارة عن مجموعة من الميول تشجاذبه ، وانتصار أحد هذه الميول يودى إلى العمل . وعلى ذلك فالإرادة قوة تعمل سابقة على كل حكم .

وكلتا النظريتين على حق من بعض الجهات .

لو أننا نستمع إلى كل باعث يلوح لنا ، أو نساق بكل دافع يحركنا ، لكننا

نعمل عن اندفاع لا عن إرادة ، إذ أن الإرادة هي الشعور بالرقابة الشخصية على البواعث والدوافع المختلفة ، فينتج عن هذه الرقابة انتخاب الطريق الذي نريد أن نسلكه ، والحكم بأفضلية شيء على آخر ، أو ميل على ميل . والإرادة أيضاً هي المقدرة على إيقاف البواعث العقلية والدوافع النفسية بدلاً من المبادرة إلى تنفيذها . فالانتباه إلى العمل ، والشعور بالتمييز والترجيح ، هو أساس « الحرية » عند الإنسان ؛ وليس الحيوان حراً ، لأنه ينقاد لدوافعه الباطنة التي تحركه ، فلا ينظر هل هي مفيدة أو مضرّة ، فاضلة أو ضيعة ؟ فمصدر الأعمال لا يرجع إلى إرادة الحيوان بل إلى هذه الدوافع ، لذلك كان الحيوان عديم الأخلاق .

ونستخلص من كل هذا ثلاث صفات عامة للعمل الإرادى :

- ١ — أن الروية تقتضى نوعاً من الصراع بين البواعث والدوافع .
- ٢ — يحدث انتخاب من بين هذه البواعث والدوافع . لهذا كانت الإرادة تتطلب شيئاً من التردد ولو قليلاً .
- ٣ — يصحب الإرادة شعور بالحرية ، هو الذى يميزها عن الأعمال الآلية .

الحركات الإرادية :

يؤدى الجسم كثيراً من الحركات منها ما هو إرادى ، ومنها ما هو غير إرادى . ومن الحركات غير الإرادية ما ينتج عن تقلص العضلات بطبيعتها كالمثانة . وأغلب الحركات عند الحيوان تصدر على هذا الوجه ، مثال ذلك : إذا انتزعنا جزءاً من أمعاء حيوان كالأرنب ، بعد أن يوضع فى محلول خاص ووسط ملائم من الحرارة ، فإن العضلات تظل تتقلص وحدها ؛ أما عند الإنسان فإن أغلب الحركات غير الإرادية تخضع للجهاز السمبتاوى والباراسمبتاوى .

وهناك بعض حركات أطلقنا عليها اسم الفعل المنعكس البسيط ، وهي التي تصل إلى مراكز النخاع الشوكي فقط ، مثل حركة الرجل عند ما تضرب أسفل الركبة ضربة خفيفة .

وهناك حركات أخرى يصدر الأمر بها من مراكز الحركة في المخ ، ومنها إلى الألياف النازلة أو المصدرة حتى النخاع المستطيل والنخاع الشوكي ، ثم إلى أعصاب الحركة . هذه الحركات الصادرة عن المراكز العليا في المخ ، تسمى الحركات الإرادية .

والموازنة بين الإنسان والحيوان فيما يختص بالإرادة ، توضح لنا طبيعة الفعل الإرادى . فالحيوانات الدنيئة لا إرادة لها ، لأن سلوكها يكون بالأفعال المنعكسة أو الغريزة ، ومع ذلك فقد رأينا أن الحيوان قد تطرأ عليه ظروف تضطره إلى تغيير سلوكه ، مثل الأرضة^(١) التي تطعن فريستها وتجرها إلى الجحر ، ثم تعدل طريقها بالمحاولات الحسية ، والتجارب العملية ، وحذف الأخطاء .

أما الإنسان فإنه لا ينزل إلى ميدان التجربة العملية والتلمس ، بل «يتصور» العمل والطرق المختلفة التي تؤدي إلى تحقيقه ، ثم ينتهى بفكره إلى أفضل طريق . مثال ذلك القط حين يرى باباً مقفلاً ، فيحاول فتحه عملياً ، ويخدش بمخالبه ، ويأتى بكثير من المحاولات . أما الإنسان فإنه يقف أمام الباب ثم يفكر كيف يفتحه ؟ بالعنف ؟ بمعالجة الرتاج ؟ ... حتى إذا استقر تفكيره عند رأى اندفع إلى تنفيذه ، فمحاولات الإنسان عقلية ، إذ يبصر بذهنه الخطأ والصواب .

وهناك إرادة كف عن الفعل ، لقيام موانع توقف العمل ، كالكتاب الذى يريد أن يخرج للنزهة ، ثم يجد أن تمة الكتابة أوجب ، فيمنع نفسه من الخروج بإرادته .

أمراض الإرادة :

للمراكز العليا من المخ نوع من الإشراف على المراكز السفلى . وقد رأينا أن الحركة الإرادية تصدر عن المراكز العليا في المخ ، ومنها إلى النخاع المستطيل والنخاع الشوكي ، ثم إلى أعصاب الحركة ، وفساد أى مركز من هذه المراكز يؤدي إلى اضطراب الحركات الإرادية . فالشلل يحدث اضطراباً في الإرادة ، ويرجع ذلك إلى فقدان الرقابة على الحركات ، فإذا أراد المريض أن يتناول كوباً من الماء ، فإنه لا يستطيع أن يسدد يده نحوه ، بل تظل يده تتذبذب مدة قبل أن يقبض عليه . وفساد مراكز الحركة يؤدي بالمريض إلى أن يفعل حركات صيدانية ، ويجسم الانفعالات لأسباب تافهة ، وينتقل من الضحك إلى البكاء بسهولة ، ويكثر عنده الاندفاع ، ويكرر بعض الأعمال والجل تكراراً آلياً ، ويفقد الشعور بالمسئولية ، ويميل إلى الهذر الخالي من الأدب .

وقد تؤدي الأمراض العصبية والنفسية ، التي لا تصحب بفساد المخ ، إلى مرض الإرادة . وأول هذه الأمراض هو سهولة الإستمراء ، أو الميل إلى الانقياد لتأثير أفكار الغير عن طريق المخاطبة أو القدوة . والأطفال والجماعات أكثر قبولاً للإيحاء عادة ، لأن الطفل أو الفرد في الجماعة يفقد الرقابة الشخصية على فكره ، وتضمحل شخصيته ، فيذوب في غيره . بينما الشخص العادي يفكر وينتقد ويقاوم مقاومة عقلية ، بدلاً من الانقياد الأعمى الآلى لأوامر الغير . وهنا يجب علينا ألا نخلط بين هذا الإيحاء المريض ، وبين الإيحاء الصحيح الذى يجرى بين الناس عادة^(١) .

وتزداد قابلية الاستهواء عند بعض العصبيين في حالة الصحو ، وتكون أكثر شدة في التنويم المغناطيسى أو الجولان النومي^(١) .

ومن أمراض الإرادة العناد ، وهو عكس الاستهواء . والعنيد هو الشخص الضعيف الذى يريد أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالى من النقد العقلى والتفكير . وقد يكون الدافع لهذا العناد حب الظهور المعوج ، كالذين يتبعون مبدأ « خالف تعرف » . وحب المخالفة والمعارضة نوعان من السلوك أساسهما الدفاع ضد إرادة الغير ، ولكنه دفاع ذو مستوى منحط ، إذ أن المخالفة لا تصحب بالمناقشة والأدلة . وكثيراً ما يوجد العناد وحب المخالفة والمعارضة عند الأطفال ، وذلك لقصور عقولهم . ومن أمراض الإرادة للفكرة الثابتة^(٢) ، وهى تلك التى تستولى على صاحبها فتقوده وتسيره دون أن تجد مقاومة أو تقداً . فالإنسان فى هذه الحالة يكون فى شبه ذهول عن كل شىء إلا عن هذه الفكرة .

ومن هذه الأمراض أيضاً ما يعتري صاحب النزوات ، وهو الشخص الذى يجرى بالدفاع وراء كل نزوة تطرأ على ذهنه . والنزوة عبارة عن فكرة تؤدى سريعاً إلى العمل ، دون أن يبحثها صاحبها فى ضوء العقل .

ومن الأمراض الشائعة فى الإرادة التردد ، حيث يظل المريض متردداً بين فكرتين ، فلا يستطيع أن ينتخب إحداها ، ولا يعزل إلى العزم والتصميم . ومرض العزيمة يجعل الإنسان حائراً لا يستقر على رأى حتى فى الأشياء البسيطة التافهة ، كشرء قلم رصاص ، أو كراسة ، أو منديل . والحقيقة أن العمل نفسه ليس

Somnambulisme. (١)

Idée fixe. (٢)

عسيراً أمام المتردد ، ولكنه يفقد الاستقلال فى رأى . ولذلك فإن مثل هذا الشخص يخضع بسهولة لإيحاء الغير ، وينقاد له وينفذ العمل الذى يتردد فيه . فمرجع الاضطراب هنا هو صعوبة الخروج من هذا الصراع الفكرى . مثل هؤلاء المترددين يحبون دائماً أن يكونوا خاضعين لغيرهم فى الحياة الاجتماعية .
